هل يُعيد الفنّ روح بيروت وحيويتها؟

2020-10-22 | 13:40 **المصدر**: بيروت- **مهى سلطان**

في بيروت ثمة معارض تستعيد شيئاً من ميراث المدينة الفني، وهي تتربص بنبوءات تُجاوز التاريخ المتقلب للفاجعة، لذا تبحث عن تحوّل يفضي الى عصر جديد تختفي وراءه مخاوف الشعور بأهوال الدمار والتشاؤم العميق والموت. فالفاجعة التي ألمت ببيروت من جراء انفجار المرفأ أحدثت هلعاً فاق التصورات الفَنائية، وما زالت تداعياتها تتردد في نتاجات الفنانين لاسيما الجدد الذين اطلقتهم ثورة 17 تشرين الأول (أكتوبر). وبين المعارض التي تنظمها حالياً الغاليريات في العاصمة بيروت او في فروعها في الخارج (غاليري صفير زملر ومرفأ للفن المعاصر ومارك هاشم...)، تتبدى مشهدية المرحلة أكثر ما يكون في ثلاثة مقتربات: ظاهرة في غاليري جانين ربيز، وغاليري أجيال، وغاليري أليس مغبغب، مبنية على أسئلة المرحلة الصعبة التي تحمل شيئاً من شجاعة التواطؤ مع الواقع المأزوم. وكأنّ حقيقة اخرى تكمن وراء المشهد الظاهر للخراب، يعبّر عنها جلال الدين الرومي بقوله "إن الجوهرة تحت الأنقاض".

الاشجار تولد واقفة

بعدما دُفنت وروده تحت الزجاج المهشم والجدران المتداعية لغاليري تانيت في شارع مار مخايل من جراء الانفجار المروّع، وفيما كانت الغاليري في طور الترميم شرع الفنان عبد قادري في تنفيذ مشروع يحمل إسم "أوّد ان اكون شجرة". وهو يتألف من جداريتين مقسمتين إلى ثمانين رسمًا (من الكرتون مقاس 100 × 70 سم)، يعود ريعُ بيعِها لمصلحة جمعية "بسمة" للمساعدة في إعادة بناء وَترميم المنازل المتضررة جراء انفجار مرفأ بيروت في 4 آب 2020.

هذا الانفجار الذي أدى الى اغلاق غاليري أليس مغبغب في الاشرفية، لتعود بعد ترميمها لتشرع ابوابها من جديد في معرض أفتُتح في ذكرى ثورة 17 تشرين الأوّل 2020، تحت عنوان "هذه الأرزة التي نقطعها: لوحات، منحوتات، صور فوتوغرافيّة، رسوم، وفيديوهات". حشد المعرض (يستمر حتى 31 ديسمبر 2020 في الأشرفية لينتقل بعدها الى بروكسل) أعمالًا لأربعة عشر فنانًا لبنانياً وعالمياً، وهو يأتي بمثابة صرخة غضب أو كمحاولة للمّ الشمل حول هذه الشجرة المجيدة، شعار الاستدامة التي تتسلّح بها الطبيعة في مواجهة القوى المدمّرة التي تحاول قطع عنق لبنان، وتضامناً مع كلّ الذين ما زالوا متجذّرين واللذين ما زالوا متأصلين في أرضهم ويحاربون لهيب الاحتضار ويصارعون موجات الهجرة.

عندما اندلعت الثورة الشعبيّة في 17 تشرين الأول 2019، أحد الأسباب التي أشعلت فتيلها كانت صوَر الحرائق الضارية التي اجتاحت هضاب لبنان ووديانه وجباله. وكما سرت النيران في الغابات، امتدّت الثورة على كامل الأراضي اللبنانيّة، وشملت كافّة المدن والمناطق، موحّدةً كلّ اللبنانيّين في هذه الكارثة البيئيّة ضدّ الخيارات المخزية التي قامت بها السلطة آنذاك، وضدّ سياسة الأرض المحروقة؛ هذه السياسة التي تمتدّ من البيئة إلى الاقتصاد، فتجرّ الشعب اللبنانيّ نحو موت بطيء.

"تولد الأشجار/ كي تشكل تيجاناً/ للسماء/ السماء في عمقها/ تخبىء في سحابة النهار مجراتها/ فلا يبان/ إلا ملء النور الأزرق/ مساحة كل التخيلات". وأشجار ايتل عدنان مثلها بلا جذور تتمايل مثل اناشيد وتنمو عميقاً في ذاكرة الامكنة، فكل شجرة هي نشيد "هي روعة هذا البلد/ يابس ولكنه حيّ/ الإيمان ان الآلهة سكنته/ في صمتها/ نود مشاركة هذه الاشجار سرّها/ ايقاع جمالها/ كيانها المطلق" تلك هي واحدة من القصائد التي كتبتها ايتل عدنان، بعد اطلاعها على الصور التي التقطتها المصورة هدى قساطلي للأشجار في لبنان التي تقطع اعناقها يوماً بعد يوم وتُحرق بلا رحمة.

بين ضوء خافت وأفياء رطبة تُظهر الصور التذكارية الآسرة التي التقطتها عدسة نديم أصفر أشجار غابة الأرز المجيدة، كمقدمة لتأمّل اللوحة الجدارية التي رسمها الفرنسي شارل بيل لشجرة أرز معمّرة، وهو الذي لطالما اعتبر عناصر الطبيعة أشبه بالموسيقى التي تمنحنا النجاة والراحة، وأن الطبيعة ليست كامنة في الموضوع بل في الأحاسيس، وكان بيل قد شارك في العام 2011 في فيلم وثائقي اعده لوك جاكيه بعنوان "كان هناك غابة".
قد لا يصل بنا التخيّل ربما، الى رؤية شجرة عائمة في فضاء متحرك، لكنه يتراءى واقعاً جميلاً في شجرة لودويكا أوغورزليك (نحاتة من بولونيا تعمل على مبدأ التبلور الفضائي) التي جالت في طبيعة لبنان وجمعت بقايا العشب واغصان الصنوبر اليابسة كي تشيد تكويناً خيالياً شبيهاً بأرجوحة الهواء ما هو إلا تركيب نحتي متحرك لا يبحث عن التوازن والثبات بل يعيش في الاهتزاز الدائم الشبيه بشبكة خيوط الحياة واحلامها.

"هناك الكثير من الخيبات ولكن هناك ايضاً الكثير من العذوبة" كتب الناقد والفيلسوف الفرنسي ايف ميشو في سياق الكتابات التي خصصها للفنانة البولونية مالغورزاتا باشكو التي ترسم الحركة الداخلية لعناصر الطبيعة بشاعريتها الضبابية التي تجذب اليها الحالمون والشعراء، كما تؤوي الشجرة اليها عصافير الفجر. وليس من رقة توصف مثل رقة الفنان الصيني لي واي الذي ينضد بالحبر على الحرير بانوراما ظليلة عن الطبيعة واشجار الصنوبر الواقفة على ضفة الأفق تحت ضوء القمر.

قد تبدو الأزهار الطافية على سطح الماء بلا جذور ولا تربة مثل الهجرات التي تقود الى التشتت في اللامكان (في صور يان دوموجيه)، ولكن هل يمكن ان نتخيل الطبيعة بلا غابات؟ إذا تم اهمالها ووصلت الى اليباس يصل العالم الى خرابه تلك هي التيمة التي طرحها إريك بواتفان وهو من اشهر المصورين الفرنسيين المعاصرين الذين عملوا على دراما موت الغابة، ثم لنرى الشجرة منفردة موضوعاً أثيراً في قطعة من اعمال النحات الايطالي لوتشيانو زانوني الذي استخدم الحديد في صوغ شجرة اعطاها حلة صلبة لا تحاكي طبيعتها النباتية كي تعيش في طبيعتها الفنية الثانية. ولعل من بين أكثر الأعمال البصرية التي حاكت شجرة الأرز الفيديو الذي نفذه نيكولا غاياردون انطلاقاً من رسوم جمعت في توليف رقمي على وقع الموسيقى بحيث تبدو شلوح الأرز تتحرك على هوى النسيم الذي يهب ويبعث فيها الحياة.

هل يمكن إعادة الحياة الى الزمن الجامد؟ سؤال مطروح في المعاصرة يتراءى في البطاقات البريدية التي نفذتها الفرنسية ليوبولدين رو تعود الى حقبة الانتداب الفرنسي في لبنان وتتمحور حول حرش الصنوبر في بيروت، من خلال إضافة حبيبات اللون لتتوج أشجار الصنوبر التي تميز الحرش وقتئذٍ، ولكن اللون ما هو إلا طلاء الأظافر وهو الجديد الذي يمنح الموضوع صفة النسوية لكي تطغى على الماضوية التاريخية، كنوع من التّدخل في ايجاد وسيط يقف في وجه تصحر الحرش في الزمن الراهن.
وترجع بنا الفنانة فاديا حداد من جديد الى قلب لبنان لترينا منظرين لأشجار، واحد من جزين وآخر من بكاسين، في عنوان واحد ألا وهو "العودة العابرة"، كي تعدنا بالاغتراب وليس بالإقامة الدائمة.

الفن الآتي من أسى الروح

ماذا تخبىء الذكرى الأولى للثورة؟ رغم كل ما يساورنا من القلق وضيق الخناق تلوح من داخل غاليري جانين ربيز بيارق الفن الاعتراضي الشاب وترتفع لهجة العبث والسخرية والاحتجاجات، وكأن بيروت تجترح اعاجيبها، بلغة الفن الذي رأته ندين بكداش يخرج من أسى الروح لدى الجيل الذي انخرط في الثورة ووقف في الساحات ورسم على جدران بيروت عبارات الاحتجاج والغضب ولون صراخه فضاء العيش. فبعد

المعارض المتتالية التي أقامتها لنتاجات بعض فناني الثورة ولمناسبة مرور عام على ثورة 17 تشرين الأول تقيم الغاليري معرضاً جماعياً بعنوان "بيروت 2020" (يستمر لغاية 27 نوفمبر 2020) جمع مختارات من الأعمال (لوحات، صور فوتوغرافية، منحوتات، اعمال تجهيزية، رسوم)، لعشرين فناناً وفنانة، تعبّر عن نفحات التغيير الآتي مع الجيل الثائر جنباً الى جنب مع اعمال لبعض فناني الغاليري التي تدور في الفلك نفسه.
وكأنه الخوف من النسيان، أمام هول الكارثة يغدو الفن هو تأطير ما بقي من ذيول الأحداث المتتالية التي واكبت انفجار 4 آب، من الصورة الكارثية لدخان انفجار المرفأ الى تشعبات الخطوط الحمر التي تتجاذب خارطة الوطن في اعمال ليلى جبر جريديني، الى تعبيرات فورية تلحظ مرور الأشياء والوجوه والشعارات والرموز إلى أدق الملاحظات الهامشية التي تؤرخ الأثر المتبقي من الأرواح التي زهقت، فالرسم للعصفور الميت الذي رسمه أحمد غدار على محضر ظبط من محاضر قوى الأمن الداخلي، يشير الى قسوة الموقف الذي وضع به أهل أحد ضحايا الإنفجار حين أبت السلطة اللبنانية تسليم جثته لذويه قبل ايفاء رسم الظبط لمخالفة نفذتها بحقه قوى الأمن الداخلي. القسوة والعنف لا يمكن قياسهما إلا بمستوى التهديد الذي يطالعنا به أحد زعماء الأحزاب أثناء خطاباته التي تتناقلها عادة شاشات التلفزة حتى أصبحت صورته مقرونة بسبابته المرفوعة من باب التهديد، هذا التهديد الذي أطل في رسم لإدليتا ستيفان بترجيعاته وتكراره اللامتناهية على رولو من الورق بلا تحريف ولا تغيير ما يحيله الى رمز بات مكرساً ومسلماً به لذا دعت الرسم بـ"اليد الإلهية".

وتحت عنوان "انا أوقع حيرتي" رسمت لور غريّب يومياتها في تشتتها بين الوجوه والذكريات والأمكنة بما يذكرنا بديوان الشاعر شوقي ابي شقرا "حيرتي جالسة تفاحة على الطاولة" وكأن الحيرة التي تؤرق جيل الحداثة تتحول بديهيات في لغة المعاصرة كما تتبدى في ورقيات كارول شاكر الملآنة بالأشياء والتفاصيل المتشعبة في المطارح. وكأنه الجلوس على قارعة الطريق مع الذين فقدوا بيوتهم في الجميزة ومار مخايل والأشرفية ولم يجدوا بديلاً عن البيت سوى الرصيف وناسه، حين العين تسرح وتتتأمل وتتعرف وتسجل اليد بكثير من العفوية ملامح تلك اليوميات، التي أضحت ركاماً لا يختلف في فوضاه عن ركام الأبنية المدمرة التي ما زالت تشرق عليها الشمس. إننا إزاء فن مغاير مع لوحة سليم معوّض وهو ناشط اجتماعي جعلته الثورة فناناً يكافح من اجل الحرية والعدالة في عمل يحمل عنوان "أهديناكِ مكان الوردة نيترات يا بيروت" تمثل كائنات متوحشة خيالية وساخرة.

كثيرة هي الأعمال التي تحمل على ظاهرها شقوقاً وثغرات من جراء الانفجار مثل لوحة "بيت ورد" لسامي الكور التي تجسّد على مساحة دائرية، "بيت ورد" من الداخل وهو بيت بيروتي تراثي أضحى بعد الدمار مكشوفاً للعيان سقوفه الملونة وزخارفه. هكذا أضحت الإصابات إذا جاز التعبير من البناء المدمر الى ابسط المستويات من الكسور التي تم انتشالها من قلب الخراب والعطوب التي اصيبت بها محترفات الفنانين ولوحاتهم وأدواتهم، محمولات ثمينة للتوثيق والعرض أو بالأحرى تحولت الى خامات طيّعة بين أيدي الفنانين تحمل جمالياتها اركيولوجيا الخراب وانتصاراته الدامغة. هكذا تطل لوحة "بيروت" لآرا أزاد وهي عبارة عن شاشة سيلسكرين مهشمة وقد ألصق عليها من الخلف شاشة ورقية تحمل اسم بيروت.
الكثير من الأفكار والنداءات التي تتجاذبك في منعطفات معرض جانين ربيز من صور خرائب المرفأ وهياكل الأبنية الخاوية وهلع الناس اثناء الانفجار (ألان فاسويان غادة الزغبي ريبال ملاعب) فضلاً عن الصور التذكارية لوجوه الثورة وايقوناتها (مريام بولس) وايام الحجر المنزلي (جوزف حرب ومنصور الهبر)، كما أصبح للأرقام بعد انفجار المرفأ (العنبر رقم 12) دلالات مغايرة للمألوف عن عدد المفقودين والعجائز المهجرين على غرار صورة "ذكريات جريمة رقم 2 " للمصور قاسم دبجي وهي صورة تعرّض إطارها الزجاجي للكسر فأصبحت الجريمة مضاعفة. وبين عَلَم لبنان الذي تتوسطه أرزة فقدت ألوانها في لوحة جوزف الشحفة والقلب المقتلع من مكانه في منحوتة ايلي ابو رجيلي تدعونا لوحة جميل ملاعب عن بيروت الحياة

والرمز وكذلك رقائق هنيبال سروجي الشبيهة بأوراق الورد المحروق الى إعادة التأمل من أجل صوغ حياة أفضل.

عودة الابن الضال للفن

ليس لديه حكاية ليرويها ولكنه لا يعرف لماذا ينغمس أكثر فأكثر في الفن الذي قاطعه فترة ليعود اليه بزخم أكبر يخالطه الشغف وشهوة الرسم رغبة في الشعور بطاقة يديه اللتين تعملان بلا هوادة بل بشهوة عودة الابن الضال الى أحضان الفن من جديد. فالمعرض الذي يقيمه صالح بركات للرسام بسام قهوجي في غاليري أجيال (شارع عبد العزيز- لغاية 7 نوفمبر) يستحق التوقف عنده لأنه يطرح سؤالاً مقلقاً ومهماً في آن واحد، ما جدوى الفن وما جدوى العرض وملاقاة الناس في مرحلة لم تعد مزاولة الفن تعني اننا إزاء فن جيد. هكذا يعيدنا بسام قهوجي الى نقطة البداية، الى حقيقة الحب الذي يكنه الفنان الى ما يلائم هواه وليس ما ينسجم فقط مع موجات المعاصرة في صعودها وهبوطها.

إنه التجريد ايضاً الذي ينطلق ظاهراً من قيمة حداثية ما، لينمو صوب المعاصرة وتوجهاتها، ويمكننا وصفه ايضاً بالتجريب الحثيث والغزير الذي ينتقل من مسطح ورقيّ الى مسطح آخر، ومن مربع الى مستطيل وما يتقاطع بينهما. بإمكاننا ان نصف البُنية التي يعمل عليها بسام قهوجي بأنها بنية معمارية لرغبة دفينة في التشييد، غير ان هذا التشييد سرعان مع يتقوض ويعود الى حطامه الأول قضباناً من المربعات والمستطيلات تبدو معدنية احياناً هكذا توصَّل الى "أيقنة" التجريد، من الايجاز والتفكيك الى التأطير التجهيزي في توضيب داخل علبة مثل علبة الأقلام أو علبة الألوان تحتوي داخلها صفوفاً متتالية من قطع الفحم التي تعود لتذكر بالطبيعة الأم او بالإحتراق المجيد للخامة التي أعطت فن الرسم كل تاريخه الذهبي العتيق هل لهذا الشأن علق بسام قهوجي قطعة فحم ، كقطعة متحفية أو تذكار أو معلقة من معلقات الزمن الراهن بعدما غطاها برقائق الذهب أم ليقول لنا على طريقة جان لوك غودار "ليس مهماً من أين تأخذ الأشياء ولكن المهم الى اين أوصلتها؟".